سنية صالح



الغبار

قصص

مؤسسة فكر للأبحاث والنشر

الغبار

سنية صالح

الغبار

"قصص"

مؤسسة فكر
للابحاث والنشر
بيروت -
ص.ب : ١٣/٦٠٠١

الطبعة الاولى 1982

الى شام وسلافه ،
الطفلتين اللتين عمقتا وجودي . .

سنية

حمروش

حمروش صبي يعيش مع رجل اسمه العم كسرى، في مزرعة تحيط بها أشجار الزيزفون من كل جانب. ولكن من أين جاء، ومتى حط رحاله فيها؟ سؤال لم يجرؤ على طرحه ابداً. الا انه كثيراً ما تساءل عما اذا كان قد نبت في المزرعة كبعض نباتاتها، أو نقف من بيضة ما، وحتى لا يضنيه التساؤل، سلم بأنه لا بد أن يكون قد أتى من انسان ما، والا لما كان شبيهاً بالعم كسرى.

لماذا كان العم كسرى يضربه؟ لم يفهم ابداً. نادراً ما رأى الثور ينطح العجل الذي ولد تلك السنة، ولا رأى الديك ينقر الدجاجة الحمراء. وتعلم مع مرور الأيام ان البشر يختلفون عن الحيوانات طالما انهم يتكلمون ويسيرون منتصبين ويضربون صغار نوعهم. هكذا كان ـ حمروش يكبر وتكبر العصي التي يضرب بها، بينما تزداد عينا العم كسرى ضيقاً وعمقاً تحت حاجبيه الكثيفين.

أشياء كثيرة طال الزمن قبل أن يفهمها حمروش. كان

اذا رأى جدياً يقفز، يحس بشيء غريب يصعد في صدره ويملأ حلقه، فيقفز هو أيضاً مع الجدي، ويندفع من حلقه ما احتشد فيه من صراخ وبهجة. ولكن سرعان ما يقذفه سيده بحجر أو أي شيء آخر بمتناول يديه. ويصرخ: تضحك، تلعب، ستلعب العصا على جلدك. لم يكن يضرب الجدي الذي يقفز، بل لم يكن يضرب الأشجار والخراف. يلعب. ما أشهى ان يلعب. لكن لعب العصا كان يخيفه، فيكتفي بأن يختلس النظر الى الطيور وهي تلعب في الغضاء، أو تقفز فوق الاغصان.

واذا كان السيد يبدو من فوق تلك الهضاب البعيدة كالذئب، فبأي حجم اذا كان حروش الصغير يبدو؟ كتلة تراب أو خروف صغير يتحرك على العشب. وعندما يبدو في مثل هذه الحالة، انما يكون زاحفاً على ركبتيه تحت الضربات الموجعة في وسط هذا القفر، دون أن يستطيع مجابهة الظلم الا بالحكاك ومسح الدموع بأطرافه المرتعشة.

كان حروش يجهل اموراً كثيرة: تصرف سيده، العالم خارج المزرعة، المدينة. أو بالأحرى لم يكن متأكداً من شيء، حتى ملامح وجهه ولون بشرته، لم يكونا من الأمور المفروغ منها بعد: أهو أشقر أم أسمر، عريض الجبهة أو ضيقها، لأن مرآته الوحيدة في ذلك القفر البشري هي قاع

البئر أو مياه السواقي . ومن هنا تنبع ذكرياته : من الساقية ، من الصخور ، من الخريف ، حيث كل شيء يتبدل حسب طبيعة الفصول - الا سيده .

وفي يوم من أيام الشتاء المشرقة ، كان يستلقي على أكوام التبن قرب الحظيرة ، يطارده شعور ما ، شعور غامض ينبض في أعماق قلبه . شعور بالرعب من ذكرياته التي تصر على ان تحيا معه حتى آخر العمر .

وبينما كان يتململ في جلسته غمره فيض من الاحلام . ولم يعد يشعر بأطراف القش وهي تخزه من ثقوب ثوبه . وتمنى لو أن له رفيقاً على كومة أخرى من هذا التبن ، يبثه شجونه . ولذلك كثيراً ما كان ينظر الى الجبال الجرداء والطرق الممتدة عبر الأفق البعيد ، وكأنه ينتظر أحداً ما . وما من قادم . وهكذا أمضى حياته مع رفيقه الوحيد الذي لا يبادله أي حديث - لا لأن رفيقه هذا متكبر ، بل لأنه حمار . ولذلك فقد كانت علاقتهما المفروضة عليهما فرضاً ، هي من الغموض والمتانة بحيث لم تكن قابلة للانقطاع ، رغم كل ما يلقاه كلاهما من عذاب وضنك . وهذا الشعور لم يكن ليوفر لهما فرصة صغيرة ولو كفرصة الغداء ، للتمتع بحصتهما المشتركة من الطعام والعدالة .

وفي الحقيقة ، ان مثل هذه المشاعر المبهمة الممتزجة

بالضعة والخذلان لم تكن، لكثرتها، لتثير في نفسه الفزع الدائم بقدر ما يثيره ذلك الصوت المنبعث يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، من الغرف، من الحظيرة، من الحقل، من كل مكان وهو يصرخ في طبلة الأذن الصغيرة: «حمروش هات الصحون»، حمروش خذ الصحون، حمروش حطمت الصحون». «هيا تناول عقابك أيها الأبله» وكان سيده بارعاً في انزال العقاب، وسياطه تلبي دائماً رغبة السيد. كانت تتبدل حسب الفصول والمواسم: قضيب من رمان، قضيب من توت، قضيب من زعرور، وكان لكل سوط طعمه الخاص على الجلد. وتهاوى حمروش فوق التراب مرتخياً، متصلباً تحت الضربات القاسية، حاضناً رأسه بين راحتيه الصغيرتين، منكمشا على نفسه تحت تأثير ذكرياته المرة. وتذكر كيف كان ـ الحمار الصغير يجثو على الأرض من شدة الضرب. ثم لا يلبث أن يقف محركاً ذيله لاستجماع القوى ومتابعة سحب الغرّاف. لقد كان الغراف من اختصاصه. وكان سعيداً بهذا الاختصاص، لو لم تكن الاعمال الاضافية التي كان يقوم بها تحتاج من الجهد أكثر مما يحتاجه سحب مائة غرّاف وأكثر. ولذلك يصيخ السمع دائماً لتلبية الأوامر الطارئة، بحيث ما أن يسمع صوت السيد حتى تنتصب أذناه كقرنين حادين. وها هو الصقيع يملأ عينيه بالدموع. فالشتاء يكاد يمضي بكل مواسمه الخيّرة وقدماه لا

تزالان بلا حذاء. فنهض مسرعاً وقد علق القش برأسه وثيابه ليعيد الماشية الى حظيرتها قبل الليل. فها هي الغيوم تتشرب حمرة الغروب وتمضي.

لم يكن من عادة حمروش الأرق في ليالي الشتاء. ولم يكن الليل قصيراً. لقد عدّ النجوم من طاقة المخزن مئات المرات. وبين المرة والمرة كانت أمواج الذكريات تجرفه بعيداً عن السماء. إن ذكرياته في هذه المزرعة لا يمكن أن تنسى. وتذكر يوم فوجيء بسيده يصطحب معه في احدى الامسيات امرأة مسنة تتأبط صرتها. لأن الفكرة التي كوّنها عنه، هي أن سيده لم يكن ممن يحبون ـ الناس، والنساء خاصة. الا انه كان سعيداً بهذه المفاجأة التي أتاحت له الفرصة كي يعاشر انساناً آخر غير سيده الظالم، ورفيقه الفائق الغباء. وكم فجع بصمتها ايما فاجعة، وهو الذي هيّأ نفسه ساعات وساعات للرد على أية اسئلة تنهمر عليه. ولكنها كانت تعامله كحيوان صغير وديع. تخفي له الطعام خلف طية ثوبها الواسع. وتمنى لو انها أم له. كانت تنظف له ثيابه، وتبكي من أجله. وكثيراً ما كان يصادفها تشتم وتهدر بلغتها الخاصة وهي منهمكة بأعمالها. وغمر وجهه بالقش وأوشك على البكاء. تمنى لو تعود.

قبل مغيب الشمس بلحظات تصبح المزرعة كالمقبرة،

كـل شيء فيهـا يستطيـل ويتمـدد على الأرض: ظلال الأشجار، والحظيرة وحافة البئر. وكان كسرى على غير عادته، مستلقياً على السرير يدخن ويسعل ويتمتم. بينما جلس حمروش وحيداً على حافة البئر متأملاً ظله الذي يكاد يلامس باب ـ الحظيرة. كل شيء هادىء ومستسلم ومنهك، ما عدا الحمار، فهو ما زال يضرب بذيله على قائمتيه الخلفيتين وما بينهما، وينخر بأنفه من وقت لآخر. لقد ضرب ضرباً مبرحاً ذلك اليوم على عنقه وظهره وعلى عقوره القديمة المتيبسة حتى انبثق الدم وتجمد على الشعر الأغبر القصير، ومع ان صديقه حمروش غسلها أكثر من مرة الا انها تورمت وانتفخت كما لو كانت مليئة بالهواء. وعندما جره من رسنه الى الحوض لم يبد على الحمار انه راغب في ابتلاع اي شيء: ماء أو دواء أو كل ما من شأنه أن يجعله حيواناً طموحاً وراغباً في الحياة، بينما كانت عيناه تشردان بعيداً في الطرق الممتدة عبر الأفق.

كانت الشمس قد غابت وأصبح الافق بلون الدم، عندما ترك حمروش حماره قرب الحوض ومضى بحثاً عن بعض الاعشاب الشافية لعقوره. يقطف هذه ويشم تلك، دون أن يهتدي الى عشبة واحدة. وانحنى يقتلع عشبة، تذوقها ثم بصق. مر عصفور بالقرب منه، ارتفع ثم انخفض في طيرانه ففتن عقله برشاقته. ليته عصفور مثله. لكان طار

ورأى ما وراء التلال، حيث يذهب سيده احياناً ويختفي وراءها ويرجع عند العصر بأشياء جديدة. كم مرة توقع أن يرجع سيده حاملاً لـه حـذاء جـديـداً أو عتيقـاً. ولـولا الاشواك وحجارة الصوان المدببة لما كان الأمر هاماً لهذه الدرجة. وتطلع نحو السماء، وأحس بارتياح عميق وهو يتأمل الغيوم الصغيرة تركض عبر السماء. يتقدمها راع صغير له عينان حزينتان. كانت أشجار الحور ترتفع عالياً. لو أنه يصعد شجرة حور ويختفي في قمتها فلا تطاله قضبان العم كسرى. فكر في ذلك مراراً. لكن ماذا يفعل فيما لو قطع سيده الشجرة؟ تنهد. وتذكر الحمار. ناداه: «حمروش، حمروش» كذا اسماه العم كسرى نكاية به. وركض ينظر بين عليق الساقية ربما عاد الى الزريبة. ورجع راكضاً ليتأكد من ذلك، ولكن لم يجد شيئاً. فانتابه القلق على الحمار، والفزع من سيده وسيد الحمار. فعاد يبحث عنه بين اشجار المزرعة، وما وراءهـا. ايـن ذهـب؟ أخـذ يمشي مبطئـاً، مسرعاً، ينادي الحمار بأصوات الرعب الكامن في قلبه. لقد تعثر ونهض. تنصت ليسمع وقع حوافره أو نهيقه أو خشخشة يحدثها في النبات. فلم يسمع غير أصوات الليل الزاحف فوق التلال. وأحس برعدة عندما وجد نفسه قد ابتعد كثيراً. لم يعد يميز الاشياء من بعيد. كلما رأى شيئاً ما على الارض عدا نحوه بسرعة، لعله شبح حمروش ولكن

دون جدوى. وتذكر انه لا يصلح لشيء، كما قال سيد أكثر من مرة: «الجدي، الدجاجة، افضل منك».

واندفع الصبي نحو التلال مسرعاً. لو انه ينتعل حذاء ما لما غرزت الأشواك في قدميه. وانبثق الدم من خدوش صغيرة وكثيرة من ساقيه وفخذيه. ركض وركض، لكن التلال ظلت تبدو بعيدة مع آخر اصوات الكراهية المنبعثة من أعماقه. فهل هرب الحمار خفية مانحاً رفيقه الى الأبد حصته من ذلك العذاب؟ ليته هو الآخر يهرب. فالجحيم أفضل من هذه المزرعة.

وأخذت اشجار السنديان تزداد كثافة، بحيث لم يعد يميز اي طريق من خلالها. تعثر وسقط. نهض وتهاوى. وخفق قلبه بسرعة في جميع زوايا صدره. ما هذا؟ تراجع وانتظر. فلم يـر شيئاً. كانت اذناه جاهزتين لالتقاط ادق الأصوات. واستدارت عيناه رعباً عندما سمع همهمة قريبة وكأنها انبعثت من بين قدميه. ما هوية هذا الحيوان؟ تنصت، فسمعه ثانية يأتي من ــ جهة اليمين. فركض الى الجهة المعاكسة. الظلام يتكاثف وحروش ركض. وانتفض مرة أخرى. كـان صوت الدماء يضج عالياً، عالياً في أذنيه. لم يعد يفكر في غير الهرب. ما أوسع الظلام، لا حدود له، لا طرق، لا سياج، لا شيء. في المزرعة كان

يعرف كيف يسير. هناك الحظيرة، هناك المخزن، هنالك البئر. والتفت نحو المزرعة فرأى شيئاً يتقد ويلمع. فانتصب شعر رأسه. لا بد انه حيوان مفترس. هذه نهايتك يا حمروش. آه، نار سيده ولا جنة هذه البراري الغامضة والمحيطة كالأنياب. ما أظلم سيده! لو تفقده، ربما يفعل. كان سيده على حق عندما كان يضربه ان لم يعدّ الخراف. أتراه يعد دوابه الليلة فلا يجده؟ على الأقل سيتفقد الحمار.

كان السيد قد نادى بالفعل عدة مرات، ثم نهض ليقضي حاجة شخصية خلف الجدار، عندما اكتشف أن حمروش ليس في المخزن. لقد كان فراشه قذراً وقصيراً لا يتسع لجدي. وفكر باعطائه مزيداً من قطع اللباد. كما فكر بشراء حذاء له عند مرور أول بائع متجول، فالغلام قد شب عن الطوق وهو ما زال يعامله كالماعز. وشعر كأن نسمة خفيفة مرت بقلبه المتحجر. ولكن عندما اكتشف ان الحمار غير موجود ايضاً في زريبته صرخ بملء صوته وهو يبحث خلف الجدران: «ايـن انتما ايها ـ الحمـــروشـــان اللعينان؟»

وكان أحد الحمروشين لا يملك الصوت والجرأة كي يرد على سيده، المسافة بعيدة، والصرخة لا بد أن تضل طريقها في الظلام. ترى لو كان سيده في موقفه هذا، هل كان

يشعر بالرعب والفزع؟ طبعاً لا. إن الوحوش سوف تلوي اعناقها وتولي الادبار. ان سيده سيد حقيقي. لقد ـ اعتاد على وجهه وصوته وسعاله، وأصبحت جزءاً من حياته. ولربما سيعرفها أكثر وأكثر، وخاصة فيما يتعلق بالغضب والبطش، عندما يكتشف امر ضياعه. رفع حمروش ذراعه سريعاً يخبيء وجهه، وأحس كأن الجبال البعيدة، قبور شاهقة تتحرك وتوشك أن تطلق شياطينها في كل اتجاه، وان ـ الوحوش سوف تنقض عليه من كل جانب، وها هو شبح احدها يتقدم ويصرخ.

وعندما لف السيد عباءته الفروسية حول الجسد النحيل المهدم في ذلك القفر، شعر حمروش بانه غارق في بحر من الآباء والامهات، وصرخ السيد وهما على مشارف المزرعة:

«اذن هرب الحمار؟»

«نعم، ولكنه سوف يندم يا سيدي».

الحياء

لقد مات وانتهى الأمر، وأياً كانت الأسباب الكامنة وراء ذلك، لم يبق منه الا منديل مملوء بالعدس في بيت المؤونة. ومع أن شيوخ القرية ونساءها لا يرون في هذا المنديل المرقع أكثر من منديل مملوء بالعـدس، فـإن زوجة المرحوم تعتقد انه يمكن أن يقذف كحجر في وجه من يقول إن هناك عدالة. هناك نجوم وغبار وأوحال وقصور وأكواخ، هناك كل شيء الا ما يسمى ـ بالعدالة. والا ما معنى أن يموت زوجها بهذا الشكل الفاجع دون أي مبرر على الاطلاق. هكذا تردد زوجته وهي تروي تفاصيل الموت الفاجعة للأقربـاء والجيران وعابري السبيل من مدمني الموت والجنائز وهي لا تفتأ تنقب الحصير العتيقة بسبّابتها.

استيقظ كعادته في الصباح الباكر، ومضى ليرفع ماء من البئر سألته زوجته:

ـ ماذا سنطبخ اليوم؟ انه عيد.. كما تعلم..

ـ سأفتح الحانوت لمدة ساعتين، لعلّ وعسى...

ـ ولكن اليوم عيد.. والعمل حرام في العيد..

ـ العيد ليس لنا يا فاطمة.

ـ ثم مسح وجهه وانتعل حذاءه. ومضى. مخلفاً وراءه باباً مفتوحاً كأنه فم مذعور. ولما كانت تعرف رأيه القديم في هذه الأمور كقوله دائماً: العيد ليس لنا. الراحة ليست لنا، المطر ليس لنا، الزهور ليست لنا، ليس لنا الا القبر. تنهدت وتابعت رشق الماء هنا وهناك، تمهيداً لكنس البيت.

ما ان وصل الى الحانوت حتى كان وجهه مغطى بحبيبات العرق، فالشمس في قريتنا تشرق حامية دون مقدمات، ولا فرق بين صبح وظهر أو عصر. وكان حانوته متجهاً إلى الشرق والشمس تنفذ كالسهام من ستارة القنب المهترئة، حتى بدا كالحمام الناري. مسح جبينه بخرقة معلقة واخذ يتأهب مستعيناً بولده: هات المطرقة، دع المسامير، انفخ النار، أين المكواة، وكانت أصوات الباعة تأتي من بعيد مع الضجة التي تثيرها عرباتهم وصفارات الأطفال. ولما نظر إلى ولده جهاد المحني فوق الموقد بقامته التي لا تتجاوز الذراع، غرق قلبه في حزن عميق. وفيما هو يكشط العرق عن جبينه بسبابته المتسخة وينفضها بعيداً عن وجهه، هبت فوقه نسمة محملة بالغبار ورائحة الحوافر، فتعكر مزاجه، وكاد أن ينهر الطفل الذي رفع رأسه وغرق في فرك عينيه حتى احمرتا كالدم.

قفز حامد في الهواء حين دخل رجل يحمل صفيحة، كأن أحداً قد صفعه. حجب الرجل الداخل الشمس في ظهره فبدا طويلاً مظلماً. رفع حامد رأسه وأطال النظر اليه. لقد توجس شراً من وجوده واستمر الرجل ماداً الصفيحة وقد دهش من ذهول حامد الوالي.

ـ فيها عطب، اريد اصلاحها.

وارتعش وهو يستعيد انتباهه:

ـ لكنني مشغول،

ـ وأنا أيضاً مضطر.

قالها بلهجة اليائس، لكن حامد الوالي اندفع يقول متخلصاً من ذلك الالحاح:

ـ آسف ليس لدي وقت.

كيف ردد هذه الكلمات بينما هو ينتظر عملاً.. أي عمل منذ الصباح الباكر. ولم يندم بل توجس شراً من مجيئه. وعاد الى عمله مرتاحاً. وما كاد يستغرق فيه حتى عادت تلك الصفيحة وقفزت أمامه.

ـ اليوم عيد، ولم أعثر على من يصلحها.

ـ قلت لك آسف، ليس لدي وقت.

ـ أوه، انني مضطر ايها السيد، وليس هناك حانوت مفتوح في القرية سوى هذا.

رفعها حامد الوالي باتجاه الشمس، وأخذ يبحث بعينه ليدرك مكان الثقب محاذراً التلوث بما فيها. قفز الى الوراء مع اندلاق السائل، ونظر الطفل اليه هلعاً كأنه هو المسؤول، لكن أباه قال له:

- نحمد الله، النار على وشك الانطفاء.

لكن سلامته لم تدم طويلاً، ولا يدري كيف راح اللهب يركض على جسده.

لقد اشتعلت ثيابه، واشتعل كل شيء فيه. فصرخ:

- جهاد، بني لا تقترب.

وأخذ يهوي بيديه على ثيابه، لكن اللهب كان يتضاعف وهو يثب من مكان إلى آخر. وعندما صرخ طفله، صرخ بدوره.

- حذار، لا نريد فضيحة.. أين الماء؟

وحاول عبثاً أن يخلع قميصه وسرواله. لقد اختلطت عليه الأمور. فقد مكان الأزرار وعقدة الحزام. وعندما راح اللهب يوغل في ايلامه. شد الحزام بقوة فقسمه الى قطعتين. ولما لم يعد يحتمل ذلك البركان، اندفع خارج الحانوت، لكنه، عاد واندفع الى داخله بدافع الخجل والكبرياء. اخذ يثب ويرتطم ويتقلب على الأرض، دار طفله حوله عدة دورات. لقد هزمته المفاجأة. وارتبك. لم تعلمه الحياة ماذا يفعل حيال أمور كهذه. كان حامد يبعد

الصغير بما تبقى من راحتيه.

هرع الناس، ودفع الطفل الى الخلف ككلب صغير غير مرغوب فيه. انتفض قلبه، كما لو قد ذبح من الوريد الى الوريد، كما لو أن كل شيء قد انتهى. واختفى خلف الحانوت ليبكي ويشب ويتقلب على الأرض بعيداً عن راحتي أبيه وبعيداً عن الخجل والكبرياء. كان اللغط يرتفع في الداخل. وقفز مع احدى صرخات ابيه.. وركض. ضجت خلفه أصوات الاستغاثة. ماء، تراب، الشرطة. الشرطة. ولكن لا ماء ولا شرطة ولا غبار. لا شيء غير الفضول. توقف ونظر باتجاه ابيه ليعرف اي الطرق يسلك. ودوى صوت أمه كالرعد. لقد قفزت الفكرة كالرصاصة الى حيز تفكيره المفجوع. وركض وركض، لقد اختفى جسده. كان رأسه وحده يتدحرج تحت تلك الشمس المحرقة. ونيران أبيه تلف الأفق. لم يعد يرى شيئاً سوى أفكاره. وعندما وصل البيت لم يذكر كيف أخبر أمه. لكنها عرفت، وأدرك ذلك من صراخها. دارت على نفسها عدة مرات. كانت ولا بد تبحث في ذلك البيت الأجرد عن شيء يحمل له النجاة.

كانت سماء القرية المليئة بضجيج العيد، تميل الى الاختناق بغيوم سوداء متسخة، حين أخذ اللهب يتلاشى. وحركة المقاومة تخمد. وتفرق الناس خشية مطر مفاجيء، لكن المطر لم يسقط. وامتدت السماء مكفهرة حتى حدود

القرية . واما المحتضر فلا احد يعرف ما اذا كان قد شعر بتلك الملاءة السوداء التي رفرفت طويلاً فوقه وبتلك الدموع التي أمطرتها الهموم .

وضع منديله على فمه واجتاز الرصيف مسرعاً ليتفادى سحب الغبار التي يثيرها ـ البناؤون. ومع انه اطار أكثر سرعة وحذراً من جندي يقفز من خندق الى آخر، لم ينجح في وقاية عينيه السوداوين. اللعنة على البناء والهدم كلاهما يثير كثيراً من الغبار.

ضرب نعليه أمام عتبة بيته ووقف يلهث من عناء صعود الدرج، ويراقب ذرات الغبار التي أخذت أماكنها في ضوء الغروب المتقاطع كالحبال. ادار المفتاح بهدوء، ثم هز الباب بقوة كأنه رجل نائم. لقد دخل بيتـه العـامـر بـالـوحشـة والفراغ. الوحشة التي يمكن تناسيها الى فرصة أخرى. اما الفراغ، فلا يمكن اعتباره الا شامخاً من الأرض الى السقف بالرغم من وجود خادمته المؤقتة مجيده. ومع ذلك شعر ان وجودها تشويه لهذا الغراغ وصاح بها وهو يقذف عنه ثيابه بانزعاج:

ـ ما الذي ابقاك حتى هذه الساعة؟.

عصرت الممسحة وأجابته بفم طويل كفم الضفدعة:

- انني امسح البلاط.

- انك تعشقين الزحف على البلاط.

- ان مفاصلي...

- حسناً.. اعرف قصة مفاصلك، بل أصبحت ملماً بتفاصيل كل غضاريفها. هيا اسرعي سيصل ضيوفي بين لحظة وأخرى.

- لست مكنسة كهربائية... يداي متعبتان..

- حسناً.. حسنا. مهما كانتا متعبتين فلسوف تقويان على فتح هذا الباب. هيا.. كفاك زحفاً كالسلحفاة طالما أن القصة هي قصة مفاصلك.

- كان البلاط قذراً، والمغسلة قذرة، والمشاجب قذرة، والغبار يلوث كل شيء.

- انت تشردين اثناء العمل... تفركين الأرض بهذا المسحوق... وتفركين... وتفركين... بماذا تفكرين؟.

- أوه يا بني... عندما مات المرحوم...

- أعرف... أعرف. عندما مات المرحوم وخلف لك سبعة أولاد لا معيل لهم الا الله.. وأنا..

ومع انسياب الماء البارد على جلده الحكومي الرخو، انسابت مناقشته المملة مع مجيده، بل ان كل وجود مجيدة اندفع مع الماء ورِغوة الصابون الى فوهة البالوعة. وراح

يفرك جسده جيداً وهو ينفخ الماء كما لو كان يسبح في بحيرة تحت ضوء القمر. زالت الوحشة والفراغ. ولم يبق منهما الا المقدار الصغير الذي يفصله عن عمادة الكلية، وهو ما زال في ربيع عمره. «عميد كلية يا لها من كلمة خلابة، يكفي أن يرددها على الهاتف أمام جمع من الطلاب الراسبين والناجحين... الطلاب المنتظرين بضجرهم ونعاسهم، بأوراقهم وشرودهم، حتى يتأكد من أنه يقف على الدرجة الأولى من حياة مكللة بالغار. ولن يتراجع الا اذا تصدعت تحت قدميه. ولن تتصدع طالما هناك حشد من ماسحي الجوخ، بل وماسحي الأحذية ايضاً، وها هو ينتظر الدفعة الأولى منهم. راح يجفف شعره بيد وينتقي اسطوانة مناسبة باليد الأخرى. وانساب اللحن انسياب الماء على الصيف المحرق، مرتطماً بالجدران. مالئاً الغرف الفارغة بالتصميم والخديعة. التصميم الذي اكتسبه من الوحدة والخديعة التي اتقنها بمرور الزمن. أمام المرآة، رأى ممتلكاته معكوسة على الزجاج اللماع: المقاعد والستائر والمذياع وعلب التبغ والأحذية وزجاجات الخمر والمشاجب وعطور السهرة والخواتم ثم رفوف الكتب المعلقة على كل جدار، المتوغلة الى كل زاوية.

أشعل لفافته ونفخ دخانها متنهداً واستلقى بانتظار مدعويه: «والآن تدفقوا ايها الضيوف. باطراء لربطة العنق هذه ومديح لذاك الحذاء، أكون قد مهدت طريقي لنصر

جديد . فأقرع ايها الجرس». أشعل اللفافة الثالثة، لكن الجرس لم يقرع بعد. ان بعض الناس لا ينقصهم المال، ولكن تنقصهم اللياقة. انه ليس اجتماعياً بطبعه ولا مولعاً بالحلقات الاجتماعية. ولكنه يحب، لأسباب مؤلمة كالجراح، أن يراقبها ويتأملها، كما يراقب السائق وجوه المسافرين في مرآة السيارة سعياً وراء الترفيه في هذا الطريق الاجتماعي الطويل الذي أراد أن يسلكه دون دليل واثقاً من بلوغ الشوط. صرّ على أسنانه، وما لبث أن غاب خلف أفكاره.

ثم نهض وأعاد ترتيب الزجاجات والمقاعد ونظر الى المرآة وكان وجهه يومض بالاشمئزاز والوحشة والشقاء الحقيقي. عمر قاس كان يربض خلف وجهه الفتي، فالعالم يشتعل بالحقد. كان من عادته أن يقضي وقتاً طيباً في مراقبة ما يجري في البيوت المقابلة من مسح وكنس وشجار وهو متكيء على مرفقيه أو منفق وقته في قراءة كتاب أو في تأمل السماء. اما الآن فهو قلق وفي حالة انتظار، وليس بامكانه أن يشرد الى أي نافذة من بيت أو نجمة في السماء.

وراح يجول من غرفة الى غرفة، وها هي جارته التي تسكن فوقه مباشرة وهي أشد وحدة منه، لا تشعر بوجوده. انها تذهب وتجيء فوقه مباشرة، من المطبخ الى الحمام الى ـ الشرفة. لقد أدرك انها وحيدة من خطواتها، وحيدة وجميلة، كم من مرة صمم فيها على مبادلتها الحديث. ولكن عندما تحين اللحظة ويصادفها صاعدة أو هابطة الدرج، يصعقه تيار كثيف ولزج، وتختلط الأمور في رأسه ولسانه:

هذه الكلمة بعد تلك.. أو بالأحرى شيء قبل شيء.. شيء مع شيء آخر، وعندما تحاذيه يرتبك كطالب فيسارع ويشمخ بأنفه وتتصلب سحنته وتنقلب الى سحنة عميد كلية أو رئيس قسم. عميد كلية.. أوه، بل عميد الاهمال والضجر والاقداح التي لم يشربها احد.. وأرائك لم تنثنِ عليها ذراع.. وغرف لا تدوي فيها ضحكة. كان في رأسه صداع وفي قلبه مرارة. تصاعد وقع الأقدام فوق رأسه. أي شيء يمنعه عن مقابلة تلك الفتاة في الحال؟ ويقول لها:

«آنستي انت وحيدة، وأنا وحيد» وهمس في سره: «ثم انني عميد كلية».. لكن الحركة تجمعت فوق عتبة بيته ثم انصفق الباب. وارتبك في الظلمة التي تملأ لولب الدرج وهو يراقبها خلسة وبوجل.

قذف المائدة بقدمه. فانتقل الألم بسرعة البرق من مشط قدمه الى قلبه. وصاح كوحش جريح: «ليذهب العالم والمناصب إلى الجحيم». وأسرع إلى المغسلة وبلل جبينه بالماء. كان حوض المغسلة نظيفاً لامعاً، أما الرف الذي يضع عليه أدوات الحلاقة، فكان قذراً يكسوه الغبار. وتأمل الممسحة المعصورة والملقاة أمام العتبة، فشعر بالاشمئزاز من مجيدة ومن أصابعها، المحمرة العقد، وظهرها المحني أبداً في الممرات والدهاليز. ولكن عندما دخل مكتبه ورأى أنها لم تنس أن تزينه بورووده المفضلة، دهش، وشعر ببعض العزاء والأمل وبرق قلبه ببعض الأسى، وصمم الا يقسو

عليها بعد ذلك اليوم . ولكنه عندما استدار ورأى ان العالم انقزم الى بيت خانق بالرغم من زهور مجيدة ، صاح بمرارة : « ليأخذها الجحيم هي وفمها الشبيه بفم الضفدع ، هي وبؤسها وأطفالها وأنين مفاصلها » . وهبط الدرج مسرعاً . . مسرعاً لا يعرف الى أين .

سار وحيداً بين الأشجار في شارع أبي رمانة ، مثل مظلة سوداء مغلقة على الحائط . وقد أكسبها الغبار المتجمع في ثناياها حلة شيب موحشة . كان المساء غريباً كسائح آت من بلاد رطبة وشعر برغبة قوية في البكاء . وتذكر أنه عميد كلية . وقد لا تخلو الشوارع من بعض معارفه فليلجم دموعه . فأعاد أحزانه إلى أوكارها وهو يتأمل المصابيح المتدلية من أقواسها المعدنية المتآكلة . كان لكل مصباح عالم خاص وسط الظلمة . عالم يمكن ازالته من الوجود بحصاة صغيرة . انه الضوء الحقيقي ، هناك في النوافذ المغلقة حول الأسرة وورق اللعب ، حيث العالم المتكامل كالسرطان ، حيث الحنان والحب والدفء . أما ضوء الشارع المباح والرخيص فهو له ، لباعة فستق العبيد ، للحراس الليليين . . لمجيدة . مجيدة ، يا له من اسم مضحك ، اسم يرافقه كضربات المكنسة . لم يعد هناك من صديق أو قريب أو كتاب أو أغنية . لم يعد هناك سوى مجيدة بأصابعها الخشنة وأطفالها السبعة . وبخطوات يهزها الخجل ، سار في طريق فرعي يؤدي الى بيتها . زقاق محدودب كظهر مجيده . انها امرأة أرملة . ولسوف تشعر بالفخر اذا زارها عميد كلية . ثم انها ليست

قبيحة كما كان يتصور. ولا يعني كونها اما لسبعة أطفال، انها عجوز شمطاء فالفقيرات يتزوجن باكراً. هرباً من الجوع، ثم ليس دائماً فمها كفم الضفدع. يحدث هذا عندما تبتسم.

هبت نسائم الصيف مخنوقة عبر الزقاق الموحش المتهدم. كان بعض أهل الزقاق يجلسون أمام عتبات بيوتهم يدخنون، والبعض الآخر يدخل الكراسي والطراريح العجفاء استعداداً للنوم. كانوا ينظرون اليه بتوجس.. رجل غريب وأنيق يحث الخطى في زقاقهم. بل كان بعضهم يشعر بالفزع منه كأنه وباء. وهو لا يقل عنهم فزعاً وغربة. أسرع الخطى نحو مجيده. انها مرفأ أمانه في هذا الخضم الأغبر من الأتربة والكلاب المسترخية والقمامات. مجيدة وحدها ستعرف انه ليس مفزعاً ولا وباء. وانه في طريقه لأن يكون عميد كلية تملأ الكتب بيته. انه لم يعرفها الا حافية في المطبخ أو في الحمام. ولأول مرة شعر بأن عملها مرهق. لكنه لا يعرفها ابداً وهي حرة في بيتها، آمرة ناهية. وشعر بتوجس لأنه يجهل شخصية مجيدة في البيت.

وقف أمام الباب ولأول مرة شعر بالارتباك، نفض ثيابه وسوى ربطة عنقه وشعره. فعل كل هذا قبل أن يقرع الباب مثل أي طالب أو موظف بسيط يقرع بابه. قد يكون مبعث اضطرابه تلك النية التي تختبىء في رأسه. وانفتح الباب محدثاً صريراً شعر به يملأ الفضاء. وأطل رأس مجيده

الأشيب، واستدارت عيناها دهشة. وبدت لعينيه مقرفة كالقرد، وقد علق منديلها العتيق بمؤخرة رأسها. وتلمست ثوبها بخجل حقيقي وسألته بصوت رقيق وحنون: سيدي هل هناك مكروه؟ فأجابها بابتسامة لم يعرف كيف اخترعها:

- لا.. لا، أبداً.

- لقد أرعبتني.. بقي قلبي عندك. لم أنهِ تنظيف بيتك اليوم.. تفضل.. تفضل.

ولكن الى أين يتفضل؟ لم يكن في الغرفة متسع لعناق ديكين. كان فراش الأولاد يأخذ نصف الأرض. فراش مملوء بالرؤوس والأيدي والأرجل والأفواه والعيون التي أغلقها النوم. بينما امتد فراشها على الطرف الآخر. وتكدست الصحون والطناجر والفضلات وصرر الثياب هنا وهناك. واختفى شريط المصباح الكهربائي تحت أكوام الذباب النائم. وأجال عينيه بفزع في ذلك الجحر الصغير. انه جحر لحيوانات بشرية. وبرقت في رأسه ذكرى طفولته. وتذكر اخوته. هكذا كان ينام بينهم. وهكذا كانت تهب أمه قلقة ومتلهفة ووفية لتفتح الباب لأبيه. وشعر بالخجل والضعة من تلك النية التي تختبىء في رأسه بين ركام مبرراتها. ورآها سيئة للغاية وشعر بثقلها. كانت الغرفة مزدحمة بكل شيء لم تترك منفذاً لها.

كانت مجيدة تنظر إليه فخورة بزيارته حنونة كأم. وأدرك للتو بأنه لم يتفرس يوماً في وجهها. وكان الشيب يبرز من تحت منديلها الذي أوشك على السقوط. وبرزت الغضون عميقة موحشة في انحاء وجهها. وأخذت توقظ أطفالها لتفخر أمامهم بسيدها الشهم. ونظر إلى الأطفال، كانت عيونهم مليئة بالنعاس والاستسلام. وسأل بحنان لم تألفه مجيدة من قبل:

ـ قلت لي عندك سبعة أطفال، ولا أجد سوى ستة.

ـ سيدي. طفلي السابع دائماً تأخذه الشرطة.

ـ الشرطة؟

ـ نعم... انه يكسر زجاج النوافذ والسيارات. ونظر إلى النافذة التي تطل على الشارع فوجدها مغطاة بورق الصحف الأصفر المهترىء فقال مندفعاً:

ـ هيّا لنأتي به.

العاشقان

في احدى الليالي الغابرة، رحل الخريف واحتل الشتاء مكانه في الغابة وعلى أشجارها. وما أن امتلأ الفضاء بأصوات المطر والريح، حتى استيقظت الزهرة الحمراء بعد رقاد طويل على السفح المغطى بالحصى والأشجار الكئيبة. وبعينيها الشفافتين شملت الفضاء العاصف بنظرة ملؤها الحنان.

التفت خيوط الضباب حول الغابة كقميص من الفضة، وقد دفعته الريح هنا وهناك، وكأنها ودت ان تلبسه كل الأشجار العارية تحت المطر. ولما كانت الزهرة وحيدة في ذلك الظلام وفزعة، انتابها البرد، وضمت اوراقها. حلمت بالشمس والربيع. وفجأة ارتعش قلبها الصغير، خفق - بسرعة تحت الأعشاب الهرمة، عندماغرد طائر ما في احلامها فاخترق الريح والمطر والأشجار. ابتسم كل ما حولها من أشياء وفراشات وجنادب وبراعم. وتحركت من مكانها. قفزت كالأطفال بين حشائش الغابة وارتقت سلم السماء

وكأنها تبحث عن غناء ذلك الطائر أو عن شعاع شمس هارب من عصف الريح ووحشة الليل لتتدفأ به. ولكن الطائر كان قد رحل والأغنية تلاشت وما بقي الا الصدى. وفيما كانت الزهرة تقيم شعائر الحزن، تفتح قلب العصفور الراحل وأرسل تنهداته الى الريح، الى الجذوع الرطبة والأعشاب المقرورة حيث كانت الزهرة وحيدة بانتظار الأغنية أو الطائر، تفتحت عروقها بالأمل والرغبة في الرحيل بعد أن ظلت الفصول الطوال قانعة بعطرها، ملتحفة بتويجاتها. وتخيلت نفسها مسافرة بين جناحي الطائر أو منتظرة في عشه. وعندما فشلت في مغادرة أرضها، بقيت وحيدة مع ظلها القزم في الضوء البعيد. رنت، وأنشدت من خلال أوراقها الرطبة والدبقة وكأنها لمحت شيئاً يهوي اليها:

إن جئتني ميتا، فدموعي
ستحييك،
يا من لوحتك شمس القمم
اهبط الى عالمي لنحيا كالأنهار

ومع آخر كلمة قالتها الوردة، هبت الريح ولمع البرق: برق لا ليرعبها بل ليضيء عيني حبيبها. بكت من الفرح حتى تدفق نسغها حاراً وتعرقت. انها الآن شجرة، سرير أخضر. وكأن صوته قد اقترب واقترب. تطاولت بين

الأعشاب المهترئة ونظرت عبر الأفق البعيد، عبر ممرات العشاق. وامتلأ قلبها غبطة، عندما رأت عاشقين مقبلين. وفكرت انها سوف تنحني لهما، سوف تغني وتنشر أطيب عطورها .لقد اقتربا منها كثيراً حتى غطياها بظلهما الاسمر الموحش، فشعرت وكأنها على وشك الاختناق. كان العاشق منهمكاً في توضيح لغز ما لحبيبته، متوسلا بعينيه ويديه. وانحنى فوق الأرض، ثم نهض وقال لرفيقته ان حياته بدونها لا تساوي هذه الحصاة أو هذه الزهرة. ثم مسح اصابعه من الدم الأخضر وتابع حديثه المهموم.

يبدو أن طبيعته الحساسة لم تتحمل قسوة أهله. وفي احدى الليالي، إثر عراك شديد مع أبيه، فرّ من البيت. اختبأ في رأس شجرة. وعندما تأكد انه ليس من أحد يجد في إثره، تسلق الحائط المنخفض وهبط الشارع الخالي إلا من الريح والليل. جدران ملساء عالية، نوافذ كالكوى مؤطرة بخشب ابرش مهترىء، متآكل في أكثر الاقسام. وامتدت الطريق غبراء ترابية، وكأنها ظل طويل لذلك الليل، ثم الأشجار، إنها متحجبة كالنساء، لا تزرع إلا خلف تلك الجدران، وكأنها أفراد من صميم الأسرة.

جلس القرفصاء، فبدا بحجم كلب شريد. واستسلم للبكاء، فالريح والليل يهيجان الأحزان. ولكنه ما لبث أن توقف ليرى من اية جهة يأتي وقع تلك الخطوات. قفز قلبه الخائف. أتراه واحد من أفراد أسرته. وبدا صاحبها من بعيد كالشبح المغطى بالسواد. وعندما اقترب، عرف فيه زوجة الحذّاء.

لم ينتبه انه جالس على عتبة بيتها حتى اقتربت منه. كان

ذلك بالصدفة. توقفت أمامه. راوحت في مكانها بضع خطوات وكأنها تطلب اذناً بالمرور.

نهض وعقد يديه المرتعشتين خلف ظهره. لقد تنحى عن العتبة فلماذا لا تدخل. اقتربت منه وظلت تقترب وهو يتراجع حتى انبهرت انفاسه. وعندما عبثت الريح بعباءتها شع دفء عطر مثير لفح وجهه وصدره المثلج. وبان ثوبها القصير، وصدرها العاري، أو يكاد وهو يخفق كصدر عصفور. وحلق طويلاً، رغماً عنه في تلك الثياب المثيرة والفاخرة. لقد اعتاد على ثياب أمه الريفية. همست:

ـ لماذا أنت خارج البيت؟ هل أدعو أهلك؟

قفز قلبه وندت عنه صرخة حادة، وكأنها خرجت من فم آخر غير فمه. وانطلقت يداه من خلف ظهره لتتشبثا بعباءتها وكأنه يريد أن يحول بينها وبين ذلك. ومن خلال أصابعه المرتعشة أدرك كم كان جسدها ليناً، دافئاً. نسي نفسه وهو يمسك بها. فابتسمت واقتربت أكثر وأكثر، وكأنها أدركت ما يجول في داخله. تراجع الى الوراء فمنعه الحائط، ووقف في وجه فراره. وعندما احاطته بذراعيها الدافئتين، استسلم. وفشل في مقاومة ذلك التودد الغريب. وارتجفت عظامه المقرورة وهو يدخل بيتها أسيراً.

في الصباح التقى بوالده على العتبة، وجهاً لوجه، كفار وشرطي. قبض عليه، وظل يجره من ياقة جلبابه، والصبي

يقاوم ويصرخ حتى أدخله البيت. وهناك، ظل يجلده بعصاه حتى صار في جسده من الكدمات ما يكفي لزربه أياماً. كل ذلك دون أن يهرع أحد لانقاذه. لكن تحت استسلامه ورضوخه الذي أُرغم عليه، كانت مخيلته تبيت أمر الفرار. اذ ذهبت تلك المخيلة المقهورة أبعد وأبعد، بحثاً عن مكان تلجأ إليه. ومع تلك الأفكار كانت تتضح صورة زوجة الحذاء. لكنه سرعـان مـا يـرفـض ذلـك الحل. فبيتـاهما يشتركان بجدار واحد. وبالرغم من ذلك الإلتصاق، كان قلباهما متنافرين. لقد وضعت سمعتها السيئة حداً فاصلاً بينهما، أو هكذا خيل له. ولكن في الصباح، لماذا عمد الى الانين والبكاء، جاثياً قرب الجدار المشترك. لقد فوجىء بسلوكه الغريب. ثم أخذ يكرره كل صباح إثر خروج والده. لماذا كان يعمد الى ارسال مثل تلك الإشارات والرسائل الصوتية؟ لم يكن بينهما أكثر من مجرد المبيت في غرفة واحدة. لكنه استطاع أن يرى من فراشه يومها ما لا يزال يؤرقه حتى اليوم. وفي الليل انتظر حضورها طويلاً. حتى أعلنت عنه بخطوات فاترة، متراخية. ولكنه لم يجرؤ على اللحاق بها. إلا انه في إحدى الأمسيات بينما كان يتجسس عليها من خلف الجدار، سمع شيئاً وقف له شعر رأسه وتشنجت عضلاته. ما هذا؟ صوت رجل. بل همس عال وكأنه موجه له. صعد شجرة وتطاول، ولكنه لم يرَ شيئاً. نزل مسرعاً وتسلق سلماً، وظل يتسلق الجدار ويتعثر حتى عام رأسه الصغير فوق حافته المزججة بقطع الزجاج.

فلمح جسديهما المتقاربين تحت ضوء الفانوس الخافت. نعم، إنه رجل غريب كما توقع. أما زوجها فهو يعرفه جيداً: كل صباح، تمتلىء عيناه بهيئته الهزيلة وهو منحن: يلمع الأحذية ويصلحها. وعندما طلع الصباح كان قد حزم أمره على رؤيتها. أخذ يحوم حول البيت. لا يجرؤ على دخوله في وضح النهار. ولكن ماذا عن الليل؟ لن يطيق صبراً حتى ذلك الوقت. فأخذ يروح ويجيء أمام الدار غاضباً. ثم توقف وسأل نفسه:

- «ولكن لماذا زوجها يتغاضى عن سلوكها؟ ربما كان في أعماقه ينتظر تلك الريح التي تسقطه وتنهي مأساته».

في تلك الأثناء، انفتح باب الدار وخرجت متدثرة بملاءتها. لو رآها قبل الآن لسخر منها ورماها بأشنع التهم. كان يفعل ذلك فيما مضى مع رفاقه. أما اليوم فصار الأمر شيئاً آخر. أخذ جسده ينتفض وقلبه يخفق كالجناح. تبعها والريح تعبث بعباءتها. أسرعت، فهرول في إثرها. لم تره. نكس رأسه كي يضلل المارة. لكنها لم تلبث أن توقفت عند تاجر الأقمشة. وكان الدكان منفرداً، بعيداً عن السوق العام. فتوارى خلف كومة الأخشاب. وعندما طال حديثهما، اقترب حتى أصبح خلف باب المخزن. كان بيدها قماش نبيذي. يبدو انه ثمين، ولكنها ليست من اللواتي يدفعن نقوداً. وكان هناك عتاب. والقماش لا يزال بين أيديهما. كانت تقبض على طرفي عباءتها بيد حريصة.

لكنها لم تلبث أن حررتها. فتهدل جناحا العباءة كجناحي غراب فرشهما للتريض. ويبدو أن مفاتنها أنهت المساومة. فجاءت لصالحها. من يستطيع من رجال تلك القرية مقاومة اغرائها. خاصة عندما تدعم تلك المفاتن بنظرة فاترة.

كانت الطريق خالية من المارة. وكان يرقبها من ثقوب الباب وهو يرتجف من القهر والعذاب. وكان الباب عبارة عن لوح من التوتياء مؤطر بقضبان خشبية. فرآها وهي تميل باتجاه البائع متوددة، لكن منصة البيع العريضة، حالت دون الوصول اليه. أسرع التاجر ورفع القسم المتحرك. منها كدعوة لها بالدخول. فولّى الصبي هارباً باتجاه البرية. رافعاً أسماله كما يفعل الغائصون في الوحل. وفي الليل، فوجئت به يجثو كالشبح أمام العتبة. هزت ردفيها وكأنها فهمت ماذا يريد. ثم قالت:

- ماذا أفعل بك وأنت في هذه السن؟

فأشاح بوجهه وكأنه صفع. لقد سحقه ذلك الاستخفاف. ومع ذلك لم يتحرك. حقاً إنه صغير، لكنه لا يجهل أسرار الكبار. وعندما تذكر رفاقه وهم يقصون تجاربهم منفعلين، امتلأت عيناه ببريق الشهوة. فأضاءهما القمر. انحنت وأحاطت عنقه. ماذا تفعل؟ إنه صيدها ذلك المساء. مضيا بين أشجار المنزل متعانقين. ثمة ارتخاء داهم مفاصله. من أين تلك النار التي أشعلت جسده؟ صعدت سريرها الشبيه بعرزال من القصب المشرب بالخضرة. وفي

دقائق جاب بحاراً لم يدركها ملاح سواه. كان قريباً من حلمه أكثر من أي وقت مضى. وبقفزة صغيرة عبره. يا لكثافة تلك المسافة. ثم سقط من تلك الأرجاء يلهث، مغطىً بالعرق فانقلب على ظهره وتدحرج نشوانَ على الفراش لقد عاد الى طفولته نظيفاً من الهموم. ولكي تقطع ذلك الصمت، صاحت به:

- هيه..

- ما بالكِ؟

قهقهت. وأرجحت ساقيها وهي تجلس على حافة السرير.

- لو تدركين كم أحبك. سأموت فيما إذا عدت للوقوف أمام دكان تاجر الأقمشة.

- هل رأيتني؟

- القرية كلها رأتكِ.

انتفضت كالملسوعة وفرت من جواره. ثم جلست على رأس الفراش ضامة ركبتيها. وقالت بحدة:

- انت تبالغ... يا لك من صبي شرير.

صمتت ثم تأوهت وقالت بصوت كسير:

- أعرف ذلك.

وزمت شفتيها وكأنها تغلق فوهة زجاجة السم. ثم لم تلبث أن أطلقت شتيمة نكراء. فخشي أن تغضب منه. اندفع نحوها وأمسك بيديها وكأنهما يدا نبي. وتضرع إليها أن تكف عن ذلك. ثم انهالَ عليهما تقبيلاً. تململت وقالت:

ـ انك تضحكني.

نهض صارخاً:

ـ ولماذا؟

ـ لأنكَ مثلهم. جميعهم يُكبون على يدي قبل العمل. يقبلونها ويذرفون الدمع. جميعهم، نعم جميعهم. وعندما يعبرون هذه العتبة يطلقون ألسنتهم كالثعابين في إثري. وأنا أعرفهم واحداً، واحداً. ولذا، كثيراً ما أعمد إلى اهانتهم. فأعذبهم، وأظل اعذبهم حتى ينبطحوا على بطونهم، يندبون حظهم معي. بل إنني أعمد الى ابتزاز أموالهم، وكثيراً ما أطرد بعضهم ليخرجوا كالكلاب. دون أن يتمكنوا من مس ظفري. أعرفهم، وأعرف كل ما ستخبرني به. انهم يشون ببعضهم بعضاً. الاصدقاء يطعنون بالأصدقاء. ثم يتذمرون من زوجاتهم الريفيات، اولئك النساء الساذجات. هم ليسوا مبتغاي. وانما اموالهم التي توصلني الى العيش الرغيد. كل ما أريده هو أن أعيش الحياة بطولها وعرضها. أما هم، فليذهبوا بعد ذلك الى الجحيم.

وهنا تراخى واعتدل في جلسته، على الطرف الآخر من

الفراش. كمن يخشى أن تمسه تلك الحمم المندلعة. لم يكن يعتقد ان شقاء كهذا يمكن أن يختبيء خلف تلك الابتسامة لكنها لم تلبث ان اقتربت منه وهمست في أذنه:

- أما أنت يا صغيري فشيء آخر.

وعندما رأى عينيها مليئتين بالدموع جثا على ركبتيه وضم راحتيها بقوة الى صدره وكأنه يبتهل الى الله:

- سأعمل، سأهرب لأعمل في المدينة وآتيك بكل شيء. سأجلب لك عجائب الدنيا. وانطلقت عيناه كطائرين محومين في ذلك الفضاء الرحب. وظلتا تتوغلان فيه حتى تلاشى الحلم.

في اليوم التالي، كان ينحني فوق الاسفلت. ولما سقط مريضاً من الإرهاق، حمل إلى البيت. فلاقته أمه بالدموع. أمه التي لم تنفك طوال مرضه تلوم زوجها لتلك المعاملة القاسية التي يخص بها الصبي. كان ذلك اللوم يختلط مع هذيانه. ثم أخذا يتعاركان حول شيء ما لم يتبينه. ولم يشعر بالرغبة في معرفته وهو يعاني من وطأة نيران الحمى: حرارة.. تعرق.. برودة، ثم حرارة.. تعرق.. برودة. لكنه فيما بعد عرف أن ذلك العراك دار حول أجره. وكان أبوه يتذرع بضرورة جلب الطبيب. وظلا يتعاركان حتى فاز الأب به. ومع ذلك اكتفى بحجّام القرية.

خرج الصبي من المرض هزيلاً، خاوي الوفاض. وكان

والداه في تلك الأيام يعانيان ضائقة مريعة. حتى ان الأب ذهب وملأ سلة صغيرة بالعنب من كرم الحكومة. ولما عاد لاهثاً، أنبته زوجته. فعارضها معلناً ان موسمه كاد ينتهي قبل أن يذوقه الأطفال. لكنها حملت السلة وخرجت بها ليلاً. وأفرغتها على سيقان الكرمة. كم كان يحب إباء أمه. ويفخر به. ان ذكراها تؤرقه حتى لو كان في أكثر الاحضان دفئاً:

ـ حنونة.. لها صوت شجي كصوت البلبل.

ثم ينطلق ينشد أغانيها بصوت لا يفوقه صوت المطر رقة أو عذوبة. وكم كان يفوت اولئك العشيقات رؤية دموعه الحقيقية. إذ كانت تتدحرج على سفوح تينك الربوتين المشربتين بالورد لتسقط سراً على راحتي أمه.

ومع شفائه، عاد أبوه الى قسوته السابقة. لكن الصغير كان أسرع منه تلك المرة. فاسلم ساقيه للريح. لقد أصبحت الطريق سهلة تحت قدميه. وفي المساء، كان يرتجف على عتبة دار رب العمل، مقروراً، جائعاً، ممزق الروح والشياب. وما أن رآه حتى صاح به:

ـ «آه، لقد عاد الصغير ليبلي يديه من جديد».

وما أن دفأه بمغلي الزهورات حتى توافد الزوار لتمضية السهرة. وتحلقوا حول الطاولة ليبدأوا لعبة «الطرنيب» والمراهنات السياسية. بينما انزوى هو قرب المدفأة ليدفىء

يديه ويجفف أسماله. ثم أخذ صوت نيرانها يبعث الارتياح في نفسه، بل يضفي جمالاً عذباً على ذلك المساء.

وفي غمرة دخوله عالم الاسفلت وأبخرته من جديد، وجد نفسه قد نسي شيئين مخيفين: قسوة أبيه، ودفء زوجة الحذاء. وفي فترات الاستراحة، كان يعتلي هضبة ويجلس هناك مسرحاً نظره في الحقول المجاورة. حيث يصفع الهواء ثياب الراعيات الى الأعلى، فتظهر سيقانهن الصغيرة جذابة بعد أن تشربت بحمرة التعب والشمس. واحدة منهن أحبته. لكن على طريقتها الطفولية. إذ كانت تحمل إليه (قراعين) حليب النعاج بعد مزجها بنقط من حليب التين. كانت ترمشه بعينيها الصافيتين وهو يلتهمها. وإذا ما انتهى، انطلقت كمهر صغير وهي تضحك. تلوح بقضيبها في الهواء وكأنه منديلها الحريري.

رفع يده مودعاً وهبط التلة ليغوص في أبخرة الاسفلت من جديد. انه يحبها، لكن كما يحب أناشيد المدرسة، كما يحب نشيد «موطني» و«حماة الديار» وهو ينشدهما في الصباح أمام علم المدرسة، رافعاً عقيرته بالغناء. وبعدما ينهيهما يجد نفسه مغسولاً، صافياً وسعيداً. وها هما النشيدان يلحقان به على هيئة فتاة صغيرة تحمل له (قراعين) الحليب. أما هو فعندما يفكر في المرأة، يحلم بنساء مجربات.

ظل يتنقل على الطرق غائصاً في الدخان حتى دعي الى الخدمة الإلزامية، وظل يدخر أمه في اعماقه، أمه الجميلة،

الفاضلة، ذات العيون المملوءة بالدمع. أما النساء الأخريات فكان ينساهن بمجرد أن يبتعد عنهن. كان العمل في تعبيد الطرق قاسياً في الصيف، قاسياً في الشتاء. الريح تلعق عرق ظهور العمال بلسان وحش. والامطار تلسعهم بسياطها كاقطاعي نجس. والأيام تبلي ثيابهم في غفلة فوق الحفر والحجارة. وسائقوها يبصقون شرقاً وغرباً. لكن وجوههم، وجوه العمال المصبوغة بالفحم والأقذار ودخان مراجل الاسفلت تبدو من داخل البخار المنتشر هنا وهناك كأشباح مقنعة بالسواد. أشباح تطل على ذلك العالم العجيب، من خلال كوى لا تتسع لأكثر من عيونهم. بل كأنهم أناس آخرون غير معنيين بتلك الاهانات التي توجه اليهم من سائقي التاكسي طوال النهار. كان القيم على العمل كهلاً. وكان هو أصغر عامل عنده. كان يحبه ويدعوه الى تناول الطعام في بيته. ضبطه مرة ينظر الى زوجته بفضول واعجاب. فقال له:

ـ أحقاً تعجبك؟ إذن خذها...

فدهش وتلعثم. لقد ارتبك أمام ذلك العرض. واحمر وجهه. حتى أذناه اشتعلتا بنار الخجل. وعندما رآه في هذا الارتباك، صمت، بل حاول أن يمحو ذلك العرض بأن نهض وناوله كأساً ساخنة من الشاي. لكن ذلك العرض لم يذهب من رأسه. لقد أرقه ليالي طويلة حتى كانت مناسبة،

انفرد بها وزوجها غائب، وانفجرت الكلمات من فمه محمومة وهو يعترف بسر تلك النار التي أكلت صدره. واستمر في تلك العلاقة خفية عن الجميع. ونمت في جو دافىء من الصـــدق والطيبـــة. وامتــــدت خــــارج علم الزوج والأصدقاء. كانت الزوجة تحدثـه عـن همـومهـا العـائليـة وأحلامها البريئة. وكان الزوج يحدثه عن همومه السياسية وأحلامه التي بناها على تراب الوطن. يجلس الى جواره متودداً، مقوس الكتفين، وكأنه يرعى طفلاً عزيزاً. بينما كانت هي ترى فيه رجلاً قوياً، مثيراً. كان يحدثه عن الواجب والتاريخ ومفهوم القومية، وعن الحدود الاصطلاحية والأصلية وعن الحضارات القديمة والحديثة. ثم يدفع بالجرعة الأخيرة في فمه وكأنه يدفع الحقيقة المستعصية في فم العصر السكران. وكان هـو يقضي اعـذب الأوقـات بين ذينيـك الشخصين الحميمين. لقد مضى الشتاء ووطىء ظهورهم بكل ثقله ماراً باتجاه الأفق حيث طرق أخرى تعبد، وظهور أخرى تنحني له.

كان من عادته، ارتياد صالات السينما، ودندنة أغاني المطربين وهو ينتظرها على السطح ليراقبها. وهي تسرع في الزقاق ملتفة بملاءتها الواسعة خوفاً من الرقيب. إلا أن ذلك الرقيب السليط لم يكن الله، وإنما الناس والجيران والسمان القابع في أسفل المبنى بعينيه الكشافتين. كانت تحدثه عن السياسة وهي تتباهى. وتعتقد ان معرفتها بمثل تلك الأمور

تكسبها الكثير من الأهمية. كان يبدو له رائعاً كل ما تقوله، إذ كانت تبدو كالبرق الذي يضيء رموز السياسة ومجاهيلها. كل شيء في فمها له نكهته الخاصة.

وبدأت تلك المرأة الصادقة الحميمة تغزوه. وبدأ شيء منها يسكن حواسه. ومع ذلك فاجأها بقوله:

- اتعرفين ماذا قال لي زوجك فيما مضى؟

- لا!

- عندما رآني معجباً بك طلب مني أن آخذك.

وإذا بها تثب من الفراش وكأنها هوجمت. ركزت عليه عينين واسعتين حتى خال ان عينين أخريين قد اضيفتا اليهما ثم صاحت:

- ولماذا لا نفعلها؟

- نفعل ماذا؟

- نهرب..

- نهرب؟

- نعم نهرب.

- لكنه لم يقصد بكلمته الهرب.

- أما أنا فاعنيها. لقد ضقت ذرعاً بمراجل الاسفلت والتنقل بين الطرق، أريدك أنت، أنت وحدك وإلى الأبد.

- لكن الموضوع أكثر صعوبة مما تتصورين، فأنا مدعو للجندية ومفلس، لا أملك إلا ذلك الأجر الصغير.

ثم انني في كل مرة اسقط فيها بالحب يخيل لي أنني وجدت المرأة التي أريد وعندما يذهب الحب، أجدها من بعيد شيئاً صغيراً لا يستحق الاهتمام. ثم انه زوجك، عجوز كريم، رقيق الحاشية لا أستطيع الغدر به.

- يا لك من وغد.

وقفـزت كالملسوعة وهدرت غاضبة بكل ما أوتيت من قوة، بكلمات وشتائم وهي ترتدي ثيابها كيفما اتفق. كانت عيناها تومضان وتنذران، وترك لها حرية الانتقام، وهو يراقبها من السرير. السرير الذي حاكته كأجمل ما يمكن. سرير حبها وأحلامها. بينما كانت هي تنتفض كالمحمومة وهي ترتدي ثيابها بسرعة.. بسرعة خاطفة. وادرك ان ذلك الحب قد انتهى.

وعندما صفقت الباب خلفها. غاص صوته كالطعنة في قلبه. وعادت الغرفة خانقة. والستارة التي كانت تتطاير كفراشة صارت مجرد رقعة من القماش الرديء دقت على الافريز كيفما اتفق. تنهد، لا شك أن ذلك الليل سيفتك به إذا لم يسرع الفجر لانقاذه.

وفي الصباح، بدل أن يسرع إليها، دفن نفسه في الأفلام الرديئة لأبطال الكوميديا في تلك الدار الصغيرة التي تقع في نهاية الزقاق. ومع ذلك لم ينسها. ظل جرحه ينزف. فقرر الذهاب إليها والرضوخ لمطالبها. وهكذا أسرع كالمجنون، ولكنه فوجيء بها تحتسي الشاي سعيدة مع العامل الجديد.

شاب جميل تحمل حركاته ملامح الحداثة في التعامل مع الطرق والنساء. فعاد مغموماً على الفور. وأخذ جرحه ينزف. فتساءل لماذا لا ينتحر العشاق ساعة الهجر. لماذا لم تنتحر زوجة الحذاء على فراش حبهما؟ لماذا لم تنتحر النساء الأخريات. محال. في كل مرة كان يتبادل معهن نفس اللهاث ونفس الزفرات التي تصبح فيما بعد بلا معنى.

وفي المدينة الجديدة، كان له كفاح آخر. حيث حياة الجيش موحشة أكثر مما توقع. وقد زاد قسوتها تلك الذكريات المرة. لقد فارق عالمه الذي بناه طوال أعوام دون أمل في الرجوع إليه. كان يقضي أجمل الأوقات في لعبة الطرنيب والتفنن في خرق النظام. إلا أنه كلما خلا ببندقيته وهو يجوب الليل وحيداً في نوبة الحراسة، تراءى له الحب شيئاً آخر غير تلك البهرجات وغير تلك القسوة. وأخذت الأضواء تخبو وتغيب وهي تتراءى من بعيد كعين وحش خلف جفن أبرش. نادراً ما كان يرقب ذلك الدخول في عالم الليل. إذ تدخل المدينة في غيبوبتها كل مساء. وترف المصابيح جفنها للمرة الأخيرة وهي ترمق مجيء الفجر.

اسرة الديك الاحمر

هدية «شام» من ابيها، دفتر رسم واقلام من الشمع الملون. فرحت شام بالهدية، وجلست الى طاولتها الصغيرة، وفتحت دفتر الرسم، وفكـرت بمن سيكـون اول ضيـوف الدفتر.

تذكرت شام فجأة انها لم تر دجاجة عمتها منذ الصيف الماضي، فسارعت الى رسم دجاجة حمراء. وما ان اكتمل رسم العينين والقـدمين والذنـب حتى تحركـت الدجـاجـة وصاحت «مرحباً شام».

فرحت شام، وقبلت الدجاجة بحنان أم صغيرة، وأمرتها بالنوم، ثم أغلقت دفترها وراحت تلعب مع دماها.

بعد أيام، فتحت شام دفتر الرسم، فدهشت عندما أبصرت دجاجتها هزيلة وملقاة في أسفل الصفحة، وقد تساقط ريشها وتناثر هنا وهناك.

صاحت شام: «ما بك؟»

قالت الدجاجة: «لقد تركتني وحيدة، دون طعام آكله، وقن اسكنه، ودون ديك يؤنسني. هل نمت مرة يا شام على صفحة من دفتر؟»

قالت شام: «لا. انا أنام على سريري».

قالت الدجاجة: هذه أول مرة أنام فيها على صفحة دفتر. وقد هبت عليّ في الليل ريح باردة افزعتني وانتزعت ريشي. انا لست معتادة على هذا النوع من الحياة. في القرية لي قن، ولي صديق وفيّ هو ديك جميل. وعمتك كريمة تطعمني القمح الجيد».

فكرت شام لحظات ثم أمسكت بأقلامها الملونة، وبدأت ترسم. اعادت الدجاجة الى قلب الصفحة، ورسمت بجوارها ديكاً جميلاً. ورسمت ايضاً وعاء فيه ماء ووعاء آخر فيه قمح، ثم ملأت الصفحة بالعشب الأخضر. ورسمت في الزاوية العليا للصفحة قناً، وقبلت الدجاجة والديك وامرتهما بالنوم، ثم وضعت الدفتر في درج طاولتها.

وفي يوم من الأيام وضعت شام دماها على الاريكة، وأخذت تحكي لها حكاية مسلية، ولكنها ما ان بدأت تحكي حتى ماءت القطة المصنوعة من القطن وقالت: «اني اسمع اصواتاً غريبة يا شام». اصغت شام واصغت الدمى

ايضاً .

هناك ضجيج غامض ينبعث من درج الطاولة .

فتحت شام درج الطاولة، وحلقت مذهولة غير مصدقة . رأت دفتر الرسم قد امتلأ بالصيصان الذهبية اللون . وكانت الصيصان تمرح فوق العشب الأخضر، والدجاجة الام تلتقط القمح من الوعاء . وتطعم صغارها .

فرحت شام فرحاً عظيماً . ولكن الديك صاح فجأة محذراً منبهاً الى الخطر، فقد تعالى في تلك اللحظة عواء ثعلب، ففزعت الدجاجة والصيصان، فسارعت شام الى اغلاق دفتر الرسم، وعاد السلام والسعادة الى اسرة الديك الاحمر.

البحث عن وطن

كان في أسد عايش على قمة جبل. فكر أن له وطن. فقال: لماذا لا أذهب الى وطني. فظل ماشي.. ماشي في الصحاري. فقال يا إلهي ما هذا؟ وهو يقول ما هذا ابتلعته الأمواج، فلوح بذنبه وحرك أقدامه حتى وصل الى حافة جبل. فوجد أن هذا الجبل مخيف. فتركه الى الآخر. فوجده مخيف أكثر. وظل ماشي.. ماشي..حتى وصل الى مقره الأول. فقال هذا هو وطني.

شام الماغوط

١٩٨١

فهرس

هذا الكتاب

تقدم **سنية صالح** في قصص «**الغبار**» رؤية نفّاذة، تترصَّدُ في العالم خطوطاً مراوغة، هي القنوات الواصلة بين المُضمر والجليّ. **السرد القصصيّ** عندها يلاحق تحرّكاً خاصاً لكائنات مفرطة الحساسية تتحجّب بالصمت وتسوّرها العزلة. والكاتبة تكشف خيوط تشوشها وارتباكها لحظة تندفع نحو فضاء الآخر، نحو ضوء ما، نحو تواصل ما، في محاولة لاختراق الأسوار، وبلعثمة تعارك الصمت.

عرفنا **سنية صالح** شاعرة أساسياً، في مجموعاتها الشعرية «الزمان الضيّق» و«حبر الاعدام» و«قصائد». غير أنّ شعرها مبطّن برؤية قصصية تتمثل في نوعية قراءتها للحركة. قصيدتها ليست منظومة انطباعات ولمحات بقدر ما هي ترسُّمٌ لمسار الكائن لحظة يخترقه العالم أو يخترق العالم.

الوضعية الانسانية بتوازنها المهدد أو الذي يعاد تصوّره هي القضية الأساسية التي تصدر عنها **سنية صالح** في شعرها وقصصها على السواء.

«الناشر»



رسمت صورة الكاتبة
الفنانة منى السعودي